إلى الثورة السورية

في جراحها :

على حائطي

حائطي منعطف الصمت ،
هنا في جنح الظلام لي قصاصةُ ورقٍ ترفّ من جموحِ لحظةٍ سكرى ،
ومن بريّة جرداء زهرةْ ،
عصفت بها الريح ألقتها وراء ماضيَّ عطراً،
أشعلتها في حاضري جمرا ،

من همسٍ قريبِ ،
ممّا صررت لله لُفافاتٍ من نحيبِ ،
وكانت عيون السبايا ترنو إلى مذبح الحكم صيحةً ،
ومواويلَ تهمي في كل واذْ :
تجأر ، يا أياماً على رصيف العمر تذوي في رماد ،
لشيءٍ من شغف الرؤى ،
لرحيل الطيور مضى حلم السراب ،
ناحت نوافذ ثكلى من عذاب ،
وأنا أهمسُ للريحِ ، جنّي ،
ويا شبابْ ،

هذي البلاد أرضكم ،
إن نحن سوى أغرابْ

أقول ، يا أصحابْ ،
لمن مروا بنا في ظلام الخراب ،
هنا ملفّ ناسٍ طيبينْ ،
حملوا ما حملتم من عذاب ،
أيقظوا ما عن شمالٍ ، رمَوا ما عن يمين ،
فتحوا القلبَ مصراعَيْ صدىً للعالمين ،
رسموا على هام الجبال ألقاً ،
وشوقَاً في العيون ،
إنّا عاشقون

ووطنٌ جريحٌ يغفو في منفى ،
قبائلُ الشرقِ على جنبيه من وجعٍ طويل تحمُّ ،
تلقي للريح آهاً ،
لعاصفة تقول أنا أمُّ !،
وآيةَ الله ناراً في خطاها تلمُّ ،
كلابُ بيته في خربةٍ فاضَ الجنون بها صدىً في حائطي يرمُّ ،
لها شَرَهُ العتاة قابعاً في ريشتي يشمُّ ،
في قلمي يهُمُّ ،

وأقول ،
يا حبيبِي ، أضحى الحبُّ محضَ برقٍ رهيبِ !،
أمسى شظايا ، وقاربي حطامٌ له شركٌ يمخر في عينٍ رقيبِ ،

وبحّارةُ شاطئ الشرق يلوون ،
حملوا عبءَ القرون ،
حيتانٌ تجوسُ ،
صبايا تئنُّ في حصون ،
رجال في أسْرِهم يذوون ..

وأقول ،
يا أصحاب ،
أما عقد الحبّ بيننا ؟!.
نحن السُراةَ على التّخومِ في ومضٍ عابرون ،
لا تقلقوا !..
في شأننا مارّون ..
ونقول ، يحيا مجدكم ،
عابرون

فاسألوني ،
أما قرأت ما في عيونكم ؟!،
وحدثتكم عن حلم ؟!،
وذرعت الخطى أرضاً مليئةً بالشوكِ ؟!،
وأضأت شمعةَ الليل ، وقطفتُ وردَةَ الشمسِ ؟!،
أبصروا تروا عواصفَ بعثرتْ عند حائطي غبارَ الهرمْ !،
مدّت في محيط البكاءِ شجراً !،
ألقت شعباً في عدمْ !،
نشرتْ بحرَ دمْ ،

كم قلت كان حلماً ،
وصحا جلفٌ على صحوي بعصا يدكّ الجبالَ يرمي الخلقَ في حِمَمْ ،
وأقول ، يا سيدي :
في البحر عصبةٌ في الصحارى غزاةٌ ،
وأنت تحتُّ خلفي من قرمْ ؟!،
أصلح الله حالك ،
أ لك قدمٌ في هَرَمْ ؟!،
أم قدرٌ على أمم ؟!.

أقول له ،
ما بقي لك في الأحشاءِ سوى غائطِ ميتٍ وصمتٍ حرونْ ؟!،
سيدي ، جعلت دوني حائطاً ركمتَ فوقي السجونْ ،
أسكنتَ سمعي الرصاص ،
أهلتَ حزني في العيونْ .
أدرتَ الجنون ،
ركمتَ الدمارَ !،
نشرتَ المنونْ

أقول له ،
يا حسرةً على أصواتْ !،
سلاماً على وطنٍ يذوي تحت نعيٍ وصلاةْ ،
يغفو على دمعٍ ،
يصحو على أمواتْ ،
لِقِزْمٍ توارى خلفَ أُصبَعٍ يُهدي خِطاباتْ ،
له اللهُ من عهرِهِ ،
من غدرِهِ ،
ومن جُناةٍ ،

غزاةٍ ،
زناةْ

أصيخ إلى شعبٍ في صوتٍ ملءَ الحناجرْ ،
تحنو علينا المقابرْ ،
تعانق كلَّ ثكلى ،
ترثي كلَّ ثائرْ ،
تحاكي بعينٍ جاحظٍ شرهَ المخامرْ ،
تحوم خلالَ أزقَّةٍ وقرىً تمدُّ حزنَ المغادرْ ،
تحابي مخمورين في حانةٍ ،
تفتُّ ترفَ المقامرْ ،
ترمي حرائرْ !،
ترعى آمالنا ،
تخاتلْ ،
معنا تقاتلْ .

وأقول لها ،
يا حبُّ صار القلب بوقاً ،
يدقّ عيني غميقا ،
أسندتُه قمقماً على النجم أمسى بريقا ،
هادنته خوفاً عليه حتى إني أخربشُ الموت شفقاً رقيقا ،
كيما أمدَّ الكونَ قوسَ قُزَحٍ يلفُّ الغيمَ موسيقى ،
لأفتحَ ابتسامةً بيضاءَ ،
ووجهي يهلُّ ماءا ،
وحزني يفيضُ داءا ،
وشمسي ترمي حريقا

لأقول لهم في خفر ،
بمَا عرفتُ المآسيَ في صورْ ،
هناك من يهدّ الحياةَ والكونُ يباسٌ يباسٌ في كسوف الشمس والقمرْ ،
يباس لوحتي احترقت ،
يباس صرختي اهترأت ،
استلقتْ في خربشة الرّمادِ تحت المطرْ ،
في همسَ قبلةٍ على حجر ،
في مدى الركامِ الذي طفا من جثثٍ وقشٍ وبقايا طعامٍ وغجر ،
في عيون مخضت جميلاً أورقتْ ،
مثل غصونٍ تفتقتْ ،
على ذلّها انتصرتْ ،
أخذتْ معها ما صوّرتْ ،
القتْ ما تصوّرتْ .

وأقول لكِ ،
يا ثورةً فكرةْ ،
بقدرِ ما عرفتُ عمراً أجرُّ على مدارٍ لك دورةْ ،
وكم زرعت قصباً ،
كم سقيتُ حبرا !،
كم أمليتُ أحاجيَ حيرى ،
ورسمت صقراً يحوم في الورى ..
يرنو إلى مثوىً يئنّ من شبق تحت الثرى صائحاً إلى مُهرةْ ،
حيث كان الدمعُ ميقاتَ الهوى أمسى في العين جمرةْ .
وصار خمرا !..

هل كان وهماً ؟!،

لأجثو على قدمي ربِّ أسألُه عن عالمٍ مَسَخْ ؟!،
عن ريحِ الصّقيعِ في كوكبٍ لم يعرفْ هذا الوسخْ ؟!،
عن صنمٍ تعبت يداهُ من فراغٍ وألقت عليه الطيور حتى اتّسخْ !،
كم حطّا جبلَاً من شقاءٍ وقال اعبدوه !،
وهو من عرقٍ ودمعُ الجماجمِ رسا فيه حتى انتفخ !،
هل كان شعاراً والصوتُ انشرخْ ؟!،
أما الحبُّ مات ؟!.
أما الوطنُ انسلخ ؟!،
إني حطامٌ كفى يا قلبُ شعرا ،
معذبٌ كفى يا ربُّ شرّا .

* * *